الفصل السادس

الضمير الأخلاقي

مقدمة :

الضمير قوة ذاتية داخل الانسان تأمره بفعل الخير وتنهاه عن الشر وتحاسبه عن أعماله . وتكون للضمير قيمة عندما يكون يقظاً متنبهاً . أما اذا نام أو تبلد أو مات فإن الانسان يفلت زمامه ويكون بلا عاصم وينفلت قيده وزمامه . ذلك أن صلة الضمير بالأخلاق كصلة العقل بالفكر والأمور العقلية . وهو شعور داخلى يحسه الانسان عندما يقوم بعمل ما . فاذا كان راضياً عن هذا العمل أحس بالارتياح والاطمئنان والسعادة . أما اذا كان غير راض عن هذا العمل فإنه يحس بوخز الضمير وتأنيبه كما يشعر أحياناً بالندم والمرارة والحسرة . وحدة شعور الضمير بالسعادة أو المرارة يتوقف على مدى ضخامة أو فداحة العمل الذى قام به المرء .

فالضمير قوة شعورية أخلاقية تحكم على أعمالنا الصالحة منها والطالحة على السواء . فهى بمثابة ميزان العمل فى حياتنا . وهى تعمل أيضا كإشارات المرور التى تعطى الضوء الأخضر إذا كان العمل مقبولا ومسموحا به كما تعطى الضوء الأحمر للتحذير والأمر بالامتناع عن العمل . وعندما يصيب الخلل هذا الميزان أو تتعطل عن العمل هذه الاشارات الضوئية فإن الضمير يتوقف عن العمل. وهو ما يحدث والعياذ بالله فى حالة الأفراد الذين نصفهم بأنه لا ضمير لهم أو أن ضميرهم نائم أو أنهم متبلدو الضمير . ومثل هذا النوع من البشر يصعب التعامل معه ولا يوثق به ويحتاج إلى رعاية وتوجيه وإرشاد متصل لإعادته إلى جادة الطريق الصحيح . والضمير يتكون لدى الإنسان منذ مولده ومن خلال تربيته وتنشئته طول أيام حياته . وتزداد حساسية الضمير لديه أو تقل أو تموت تبعاً لنوع التربية التي ينشأ فيها وحسب الظروف الاجتماعية التى يمر بها . ومع أن الظروف الاجتماعية القاسية والظروف الاقتصادية الطاحنة قد تكون عاملاً مؤثراً فى تحجير الضمير وإصابته بالبلادة واللامبالاة فمما لا شك فيه أن التربية

الدينية السليمة والقدوة الصالحة منذ الطفولة تعتبر خير عاصم للإنسان من أن يتردى فى هذه الهاوية . ومن الناس من تسمو ضمائرها لأنها نشأت فى بيئات صالحة طيبة.

المعنى اللغوى للضمير :

اذا رجعنا إلى المعاجم اللغوية لتحديد معنى الضمير لغوياً نجد أنها تورد تحت مادة « ضمر » معان متعددة . فالفعل ضمر ضموراً يعنى هزل جسمه وقل لحمه . ومنه قوله تعالى « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . وضمّر الفرس للسباق ونحوه يعنى ربطه وعلفه وسقاه مدة من الزمن وركضه فى الميدان حتى يخف ويدق . ومدة التضمير عند العرب أربعون يوما . وأضمر فى نفسه شيئا يعني عزم عليه بقلبه دون أن يظهره للناس . ومنه الضمير . وهو ما تضمره فى نفسك ويصعب الوقوف عليه . وتحدد هذه المعاجم معنى الضمير بأنه استعداد نفسى لادراك الخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأفكار والتفرقة بينهما واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها والجمع ضمائر (انظر المعجم الوجيز مادة ضمير) . ونحن فى اللغة نقول « هو » ضمير الغائب « وهى » ضمير الغائبة «وهم » ضمير الغائبين « وهن » ضمير الغائبات . وهذا المعنى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى السابق للضمير لكمال الاتصال بينهما .

الضمير فى القرآن الكريم :

اذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنه لا ترد به من مادة « ضمر » إلا كلمة «ضامر » فى الآية التى سبق أن أشرنا إليها . لكنه يستخدم عبارات أخرى تدل عليه مثل قوله فى سورة يوسف « إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها (٦٨) » وقوله فى نفس السورة : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى (٥٣) » . وقوله فى سورة الشمس « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » (٧) . وقوله فى سورة المائدة « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » (١١٦) ، وقوله أيضا فى نفس السورة فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فكان من الخاسرين (٣٠) . وقوله فى سورة طه (٦٦) « وكذلك سولت لي

نفسي » ، وقوله فى سورة يوسف « فأسّرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم » (٧٧) وقوله فى سورة ق « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (١٦) . وقوله فى سورة الإسراء « ربكم أعلم بما فى نفوسكم » (٢٥) . وقوله فى سورة البقرة « وعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » (٢٣٥) . وقوله فى نفس السورة «وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (٢٨٤) . وقوله فى سورة يوسف « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً (٨٣) . وقوله فى سورة إبراهيم « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » (٢٢) وقوله فى سورة آل عمران « يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك » (١٥٤) ، وقوله فى سورة هود « الله أعلم بما فى أنفسهم » (٣١) ، وقوله فى سورة الرعد « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١١) ، وقوله فى سورة الأنبياء « فرجعوا إلى أنفسهم.فقالوا إنكم أنتم الظالمون (٦٤) وقوله فى سورة المجادلة « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول » (٨) .

والقرآن من ناحية أخرى يذكر أوصافاً متعددة للنفس . فهناك النفس اللوامة وقد أقسم بها رب العزة فى سورة القيامة) « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وهناك النفس المطمئنة التى أشار إليها القرآن فى سورة الفجر « يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى لربك راضية مرضية » . وهناك النفس الأمارة بالسوء التى تشير إليها سورة يوسف « إن النفس لأمارة بالسوء » . وهذه الأوصاف تصدق أيضا على الضمير . واذا نحن رجعنا إلى التعريف اللغوى للضمير الذى سبق أن أشرنا إليه بأنه استعداد نفسى أمكننا القول بكمال الاتصال بين الضمير و بين النفس .

اختلاف النظرة إلى الضمير :

اختلفت الآراء ووجهات النظر فى تحديد كنه الضمير وماهيته فقيل إنه حاسة فطرية يولد بها الانسان شأنها شأن الحواس الأخرى التى يميز بها الأشياء . فإذا كان الانسان يستطيع أن يميز بعينه بين النور والظلمة والأبيض والأسود واذا كان بحاسة الشم يميز بين الطيب والخبيث من الرائحة ، وبحاسة التذوق يستطيع أن يميز بين الحلو والمر ، وبحاسة اللمس بين الساخن والبارد ، فكذلك يستطيع أن يميز بضميره بين الخير والشر والحسن والقبيح من الأعمال الخلقية . وممن ذهب هذا

المذهب من المفكرين الغربيين المفكر الفرنسى "روسو" والفليسوف الألمانى المثالى « كانط » . وقيل إن الضمير مكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية للفرد. وهى وجهة نظر مناقضة لوجهة النظر السابقة التى تقول بأن الضمير فطرى يولد مع الفرد . وكون الضمير مكتسبا يعنى أهمية التربية فى تكونيه وتشكيله . ومن أنصار هذا الرأى جون لوك ودور كايم وكونت . وكلتا النظريتين لا تقدمان تفسيراً كاملاً لمعنى الضمير . فوجهة النظر الأولى تعنى أن التربية لا دخل لها فى تكوين الضمير شأنه فى ذلك شأن حواس الانسان الخمس لا يحتاج إلى تربيتها . وهذا غير صحيح ولا يستقيم مع الخبرة البشرية وتجاربها ذلك أن الضمير كما هو مشاهد بالتجربة يخضع للتربية . وكذلك الحواس وإن كان لها جانب فطرى إلا أن هناك أيضا جانب الاكتساب . فالذوق واللمس والشم والنظر والسمع كلها تخضع للتعلم والاكتساب فى بعض جوانبها . ويستطيع أن يتحكم الفرد فيها بالتوجيه وتحديد الغرض بل إنها تتلون بحالته النفسية والجسمية وقد عبر الشاعر العربى عن هذا المعنى بقوله :

ومن يك ذا فم مر مريض . . يجد مراً به الماء الزلالا

فالحواس تمرض وكذلك ضمير الانسان قد يمرض . من ناحية أخرى نجد أن النظرة القائلة بأن الضمير مكتسب لا تفسر لنا لماذا يختلف الأفراد فى ضمائرهم مع أنهم تعرضوا لتربية واحدة ؟ ولماذا لا نجد من الصعب تربية ضمير بعض الأفراد ؟ ومن هنا نخلص إلى القول بأن الضمير فطرى ومكتسب شأنه شأن ذكاء الانسان وطبعه ومزاجه وحواسه . ويطلق « كانط » على الضمير الأخلاقى إسم «العقل العملى » وأخلاق الواجب التى تستند إليها نظريته فى الأخلاق هى أخلاق نداء الضمير الداخلى .

الضمير والقلب :

يرى بعض علماء الأخلاق من المسلمين أن هناك صلة بين الضمير والقلب . ويستندون فى ذلك إلى التحليل اللغوى لكلمة الضمير . فالضمير كما تعرفه المعاجم اللغوية هو السر أو الخاطر وأضمر الشئ فى قلبه . ومن هنا قالوا بأن محل الضمير هو القلب . ولكن يمكن الرد على ذلك بأننا نقول أيضا أضمر الشئ

فى نفسه وهنا يكون الضمير من وظائف الانسانية . وهناك دليل آخر للربط بين الضمير والقلب لدى علماء المسلمين هو ما ورد عن النبى (ص) أنه قال عندما سئل عن الإيمان « بأنه ما وقر فى القلب وصدقة العمل » وما روى عنه (ص) أيضاً « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأحوالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، وقوله (ص) « إن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » ، وقوله عز وجل فى سورة الحج : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وما ورد عن النبى (ص) فى رده على وابصة بن معبد عندما سأله عن البر والإثم فقال النبى (ص) : « يا وابصة . استفت نفسك . البر ما أطمأن به القلب وأطمأنت إليه النفس . والإثم ما جاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

الضمير والحاسة الخلقية :

هناك من يرى أن الانسان مزود بحاسة خلقية فطرية تصرف أفعاله وتُصدر الأحكام عليها . وهذه الحاسة شأنها شأن بقية حواس الانسان يستخدمها الإنسان للتمييز بين الخير والشر كما أشرنا . وهى قوة داخلية لا تحتاج إلى قوة خارجية لتصريف أمورها أو التحكم فيها .

وظيفة الضمير :

للضمير وظيفتان رئيسيتان احداهما فى توجيه سلوك الإنسان إلى الخير وإبعاده عن الشر . والثانية الحكم على سلوك الانسان تقبلاً ورفضا واستحسانا واستهجانا . وهو بالوظيفة الأولى يعتبر قائدا وبالوظيفة الثانية يعتبر قاضيا وحكماً .

والضمير اذا كان حيا يبعث فى الإنسان الإحساس بالندم اذا أقدم على فعل متهور أو متسرع لم يحسن التصرف فيه . والضمير حال فردية تتعلق بالشخص. وهو يختلف من فرد لآخر باختلاف حساسيته وحيويته فمن الأفراد من يكون ضميره حيا كما أشرنا ومنهم من يكون ضميره ميتا متبلدا والعياذ بالله .

ويندرج تحت هذا الصنف من البشر الذين يستبيحون حرمات الله ويأكلون مال الناس بالباطل . وقد يستخدم الضمير بصورة مجازية فنقول ضمير الجماعة أو ضمير الأمة أو ضمير الشعب . ونحن نقول أحياناً « نداء الضمير » ونعنى به الصوت الخفى غير المسموع الذى يلح على الانسان بالقيام بعمل معين . هذا العمل هو ما يسميه الفليسوف الألمانى « كانط » بالواجب أى « فعل الواجب» كما أشرنا . وقد شهر كانط بهذا الجانب الأساسى فى فلسفته الأخلاقية والتى تعرف بأخلاق الواجب وعندما يطيع الإنسان نداء ضميره فإنه يقوم بالفعل بعمل الواجب . وعندما يتقاعس عن إطاعة نداء ضميره فإنه يكون قد خالف ضميره . وقد يحدث له اذا كان ضميره حيا ما يسمى « بأزمة الضمير » . أما اذا كان الضمير متبلدا فلن يكون له هذا النداء أو الصوت . ومن ثم لا توجد لدى صاحبه أزمة ضمير على طريقة قول الشاعر « ما لجرح ميت إيلام » . وقد يحدث لبعض الناس أن يبيع ضميره بالمال أو الجاه أو المنفعة العارضة أو الخوف أو التهديد . وهذا يندرج تحت ما تعانيه المجتمعات من أمراض اجتماعية بسبب مرض نفوس بعض أبنائها .

الشهوة والضمير والعقل :

تعرف المعاجم اللغوية الشهوة بأنها الرغبة الشديدة وما يشتهى من الملذات المادية، والجمع شهوات . والشهوانى هو الشديد الرغبة فى الملذات المادية وهو نسبة إلى الشهوة . وفى القرآن الكريم « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (آل عمران : ١٤) . وتأتى الشهوة فى القرآن الكريم مرتبطة بالنفس . قال تعالى فى سورة « فصلت » : ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم » وفى سورة الأنبياء « وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون » ، وفى سورة الزخرف « وفيها ما تشتهيه الأنفس » وواضح من هذا العرض أن الشهوة رغبة شديدة للنفس يترتب على إشباعها لذة نفسية ومادية كما فى شهوة الجنس والمال والبنين والأموال والذهب والفضه وما شابه ذلك. وتزداد حدة الرغبة فتصبح شهوة عارمة أو جامحة أو جارفة بمعنى أن الانسان لا يستطيع أن يقاومها وتضعف أمامها ارادته وضميره . وهنا نتساءل :

أيهما أقوى الشهوة أم الضمير ؟ وللإجابة على هذا السؤال نستعين بما يذكره محمد ضياء الدين الكردى فى كتابه عن الأخلاق الإسلامية والصوفية (ص ٥٧) يقول ما معناه : إن معظم الناس أتباع شهواتهم . تدفعهم الشهوة أولا ويحاسبهم الضمير ثانيا . فالشهوة قوة أولية والضمير قوة ثانوية . وبمقدار تسلط الشهوة على الإنسان يكون عجز إرادته عن إيقاظ ضميره . والشهوة أكثر انتصارا أو أقل من الضمير إندحاراً . والشهوة للخير أقل من الشهوة للشر كما أن للشهوة منازل ودرجات . وهو يدلل على أن الشهوة أقوى من الضمير فعلا فى النفس بأن الضمير لا يستيقظ إلا نادراً وبعد وقوع الفعل فى الغالب . فالشهوة اذاً أقوى من الضمير أثرا فى السلوك الإنسانى . والضمير محتاج إلى العقل لموازنة الفعل من الناحية الخلقية . كما أن الشهوة محتاجة أيضا إلى تحكيم العقل بكبح جماحها والسيطرة عليها على حد تعبير الشاعر العربى :

أقول لها وقد طارت شعاعا . . من الإقدام ويحك لن تراعى

فصبرا فى مجال الموت صبرا . . فما نيل الخلود بمستطاع

وينبغى أن نشير إلى أن الضمير فى حد ذاته لا يصدر عنه خير أو شر وانما ما يضمره الانسان فى نفسه قد يكون خيرا وشرا . ولكى يتحول ما يضمره الانسان إلى فعل يحتاج إلى عزم وإرادة وسلوك .

عمى القلوب :

من الأمراض الخلقية ما يمكن أن يسمى بعمى القلوب . وذلك عندما يعمى الإنسان عن رؤية الحق والخير والجمال . ومعنى ذلك عجز القلب عن تبين طريق الصواب والرشاد وسيره فى الاتجاه المضاد أو المعاكس . وقد يكون المقصود بالقلب هنا الضمير الإنسانى الذى تبلد وفقد الإحساس والقدرة على تمييز الخير ، وقد أشار الفليسوف الفرنسى دوركايم إلى هذه الظاهرة عند الانسان وسماها ظاهرة عمى الألوان « فيقول بأن لكل ضمير نوعا من العمى الخلقى » . ويقصد بذلك أن بعض الضمائر الفردية لا تشعر بجميع مضاهر الحقيقة الخلقية أو قد لا تشعر بها إلا شعوراً ضئيلا (انظر السيد محمد بدوى : ١٨٥) وقد أشار القرآن

الكريم إلى أن القلوب تعمى فى قوله عز وجل فى سورة الحج « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، وقوله عز وجل فى سورة الأنعام « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » . والإنسان إذا عمى بصره فإنه يتخبط فى معرفة طريقه . وكذلك الإنسان الذى عمى قليه فإنه يتخبط فى معرفة طريق الهداية والصلاح . وقد يكون من الصعب إصلاح القلوب التى عميت وإعادتها إلى طبيعتها المبصرة . وهذه هى القلوب المتحجرة التى وصفها المولى عز وجل بأنها كالحجارة أو أشد قسوة . وذلك فى سورة البقرة فى قوله : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » . وقد يكون عمى القلوب نتيجة غشاوة عليها يمكن انقشاعها بالهداية والتوجيه . وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه القلوب بقوله فى سورة البقرة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » وقد تتجنب هذه القلوب ذلك العذاب العظيم بانقشاع غشاوتها عنها وهداية صاحبها وتوبته واستغفاره . عندئذ يتوب إلى الله متابا . قال تعالى فى سورة الفرقان « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » .

والإسلام لا يحاسب المرء على ما يضمره فى نفسه من خير أو شر وإنما يحاسبه على أعماله وأقواله وما يصدر منه من أفعال . قال (ص) : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وانما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وقوله (ص) « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى » لا يعنى محاسبة المرء على النية وإنما على العمل فهو الصورة الظاهرة للنية ويدل عليها . وبدون العمل لا نستطيع أن نعرف نية الإنسان . فالعمل دالة على النية . ولكل امرئ حسب نواياه من الأفعال إن خيراً أو شراً . ومن مأثور القول « النية محلها القلب » . والقلب هنا لا يقصد به معناه الجسمى الذى ينصب على العضلة المعروفة وإنما يقصد به داخل الإنسان وسريرته وهو مرادف هنا أيضا لمعنى الضمير ومعنى النفس . وهذا المعنى غير الجسمى للقلب هو المقصود بقول (ص) : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » . وكلمة «مضغة » وهى التى تعنى لغويا القطعة الصغيرة من اللحم تسوغ فهم القلب

على أساس جسمى أيضا . ومن المعروف أن لقلب الانسان دورا رئيسياً هاما فى حياته . والواقع أن للقلب هذه الصفة المزدوجة فى اتصاله بكل من البدن والروح. ولتوضيح هذه النقطة يقول أحد علماء المسلمين « اذا حاولنا أن نفسر اتصال الرح بالبدن فإننا لن نستطيع تفسير ذلك إلا عن طريق لقلب . فكما ارتبطت به الحياه الظاهرة عن طريق ضخ الدم ، ارتبطت به الحياة الباطنة عن طريق اتصاله بالروح » (المرجع السابق ص : ٦٢) . ولذلك نجد أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن صلاح الانسان وفساده فى الحياة الباطنة يشير إلى القلب . قال تعالى فى سورة الحج « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .